كل شيء منه ﷻ

سؤال: تقولون: كان من الحتمي اجتماع آلاف الوسائل كي يتحقَّقَ ما أُنجِزَ من خدمات حتى الآن، ولا قِبلَ لأحدٍ على الإطلاق أن يفعلَ هذا سوى الله تعالى خالق الأسباب ومالكها جميعها؛ وإن نسبةَ النجاح إلى النفس والذات فقط سلوكٌ غير عقلاني، فهل توضحون معنى ذلك؟

الجواب: بدايةً لا بدَّ من بيان أن مسألةَ تحقُّق النجاحات الملموسة بلطفِ الله مسببِ الأسباب وإحسانِه ﷻ ليست محصورةً بنا ولا حكرًا علينا وحدنا دون غيرِنا؛ وإنّما هي سنّة الله المتعاقبة على مدار التاريخ، ومن ذلك مثلًا أنَّ سيدنا نوحًا عليه السلام بعد أن نجا من الطوفان بإذن الله تعالى وعنايته -كما هو وارد في كتب التفاسير- وَاصلَ تبليغ الناس بالحقِّ والحقيقة في الفترة التالية لنجاته أيضًا؛ فأعتَقَ أمته من رِقِّ الحيوانية وخَلَّصَها من محبسِ البدنِ الضيق، ووجَّهَها إلى مرتبة حياة القلب والروح، وقد اتَّجَهَت هي كذلك إلى الله تعالى وحاولَتْ الوفاء بشروط العبوديةِ وواجباتِها، ومن ثمَّ فإن مظاهرَ العنايةِ الإلهيّةِ تبدو بمجرَّد النظر إلى حياة سيدنا نوح عليه السلام المليئة بالكفاح والنضال واضحةً وضوحَ الشمس، لأنه إن أُرجِعَ

الأمر إلى الأسباب فحسب يستحيلُ تفسيرُ وفهمُ كيفيّةِ نجاتِه من الطوفان وكيفيّة تأثيره في الناس بعد ذلك، ألا يُبيّنُ الله تعالى بقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (سورة هُود: ٤١/١١) أنَّ سفينةَ نوح عليه السلام تتحرَّك وتَقِفُ بعناية الله ورعايته؟! إذًا إنّها العناية الإلهيّة وليست الأسباب.

وعلى نفسِ الشاكلةِ أيضًا؛ فإنّه لمن العسيرِ بمكانٍ على الأسبابِ أن تُقنِعَنا بنجاة سيدنا موسى عليه السلام من ظلمِ فرعون، وأن تشرحَ لنا تِيهَ بني إسرائيل في صحراء "التيه" أربعين سنة بعد خروجهم من مصر، وأن توضِّحَ لنا كيفيّةَ دخولهم تحتَ لواءِ سيدنا يوشع بن نون عليه السلام إلى أرض فلسطين بعد فترةٍ زمنيّةٍ معيّنةٍ؛ لأنه إذا ما نُظر إلى الأمر من زاوية الأسباب فإن مثل هذه الحادثة تتحقق بنسبة واحد في المليون.

الرعاية الإلهية والمؤامرات الفاشلة

إذا نظرْنا إلى الحياة المباركة لمفخرة الإنسانيّة ﷺ فإننا نُشاهِدُ العنايةَ والرعايةَ الإلهيّة فيها بوضوحٍ وجلاءٍ تامَّين؛ لأن المشركين كانوا يَسعَون دائمًا إلى تحطيم آماله هو والمسلمين؛ إذ كانوا يترصَّدونهم عند كلِّ ناصيةٍ كالوحوشِ الكاسرة فَيُهاجمونهم على حينِ غِرَّة، ويُذيقونهم شتى أنواع الأذى، بما في ذلك القتلُ وإراقة الدماء، إلا أنَّ هذه الشخصية الخالدة عليها الصلاة والسلام لم تيأسْ قطُّ ولم تقنطْ؛ فكانت ذات حالةٍ روحيّة فريدة؛ كأني بالشاعر التركي "سليمان نظيف" حاول التعبير عنها قائلًا:

ما دامت روحي مفعمة بهذا الإيمان فإنها

تصبر ثلاثمائة، أربعمائة، بل وخمسمائة عام

وكما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٨/٣٠)؛ فقد كان مشركو مكّة يُدبّرون مكائد شتى للتخلص من سيد الأنبياء ﷺ، ولما حُوصر بيته ﷺ ولم تبقَ ثمَّةَ إمكانيّة للنجاة حسبَ قانون السبب والنتيجة، ولمّا سالت الدماء الزكيّةُ من رأسِه المباركة نتيجة لِشَجِّ خدّه المبارك وانكسار سِنّه الشريفة في غزوة أُحُد، كان يعيش نفس القَدَرِ المشترك مع غيره من الأنبياء.

إن العثور على مخرج في أيٍّ من هذه الحوادث لم يكن ممكنًا باعتبار الأسباب، لكنَّ الله ﷻ كان ينقذُ رسولَه الحبيب في كلِّ مرة بشكل معجزٍ، فلقد حمى الله نبيَّه وعصمَه من الناسِ واستلَّه من بين جحافلِ الكفرِ والفجورِ المحاصِرَةِ للبيتِ النبويّ كما تُستَلُّ الشعرةُ من العجين، ثمَّ يسَّرَ له اجتيازَ طريقٍ يزيدُ طولُهُ عن أربعمائة كيلومتر، ومكّنَهُ من قطعه دون أن يُمسِكَ به أحد، حتى إن سراقة بن مالك المدلجيّ الكناني الذي اقتصَّ أثَرَهُ من خلفه لِيُمسِك به خَابَ وزَلَّ فعاد أدراجَه، ووَجَّهَ قُفاةَ أثرِ المصطفى ﷺ وقيَّافَةَ سَيره إلى جهةٍ أخرى تضليلًا لهم عن خطِّ سَيْرِ رسولِ الله ﷺ(٦٦).

والواقعُ أننا حين ننظر إلى الأمر بنظرةٍ متأنّيةٍ يتبيَّن لنا أنه تتسنى مشاهدةُ مظاهر العناية الإلهيّة في حياة جميع المجاهدين في سبيل الله تعالى، ومن أمثالِ تلكَ القامات والشخصيّات العظيمة "طارق ابن زياد" و"عقبة بن نافع" ﷺ، فكما هو معلومٌ فَتَحَ عقبة بن نافع إفريقيا من أوَّلِها إلى آخرِها، وقد سارَ حتى بلغ شواطِئَ المحِيطِ،

(٦٦) انظر: صحيح البخاري، المناقب، ٢٥، ١٠٤؛ فضائل الأعمال، ٢، مناقب الآثار، ٤٥؛ صحيح مسلم، الزهد، ٧٥.

فقال: "يا رَبِّ لَوْلَا هَذَا الْبَحْرُ لَمَضَيْتُ فِي الْبِلَادِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِكَ"(٦٧)، وحين ننظرُ إلى الحياة النموذجيّة لهؤلاء الأفاضِلِ يتبيّن لنا أن هذه النِّعَم التي وُهِبت لهم إنّما تحقَّقَتْ باجتماع العديد من الاحتمالات فقط.

ويجدر بنا أن نضيف إلى هذه الأمثلة أيضًا ازدهارُ الدولة العثمانيّة، وفتح إسطنبول، وخدمات مَنْ نذروا أنفسهم للدين، والتي بَدَأَتْ بالأستاذِ بديعِ الزمان ولا تزالُ مستمرَّة في يومنا هذا أيضًا، فمثلًا لم يكن ثمَّةَ احتمالٌ في بداية الأمر بأن يُحدِث الأستاذ انفتاحًا بهذا المستوى الذي تحقَّق حاليًا؛ فقد وُضِعَ تحت المراقبة الدائمة، فكان وكأنه يخضع لمتابعة حثيثةٍ، ونُفِيَ من هنا وهناك، إلا أنَّ أنوار القرآن والإيمان التي عرضها بإذن الله تعالى وعنايته انتشرت في كلِّ الأنحاء والأرجاء بالرغم من كل هذه السلبيات، فالأستاذ بديع الزمان رجلٌ من رجالات الأمل، إذ كان يصدَحُ به حتى في أحلك الظروف ويقول: "كونوا على أمل؛ إن أعظم صوت مدوّ في انقلابات المستقبل هو صوت الإسلام الهادر"(٦٨)، ويبعث الأملَ فيمن حوله بقوله أيضًا: "وأنا على يقينٍ بأنَّ مستقبل آسيا بأرضِها وسمائِها يستسلِمُ لِيَدِ الإسلامِ البيضاء"(٦٩)، وحين نُفكِّرُ في ظروفِ ذلك العصر نرى أن كل هذه أمورٌ لا تتحقَّقُ في ظلِّ الظروف الطبيعيّة، غير أنَّ هذه الخدمات قد تكون مظاهر لِبشاراتٍ سِيقَتْ في تلك الأيام.

(٦٧) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٢٠٦/٣.

(٦٨) بديع الزمان سعيد النورسي: **السيرة الذاتية**، ص ١٦٠-١٦١.

(٦٩) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، ص ٧٥٥؛ **الشعاعات**، ص ٧٣٩.

واحد في المليون

إن أبطـال التربية والتعليـم المتطوّعين في عصرنا هذا أيضًا تلقّوا رسـالة جلال الدين الرومي: "لا تفقد شـمعةٌ أشعلت غيرَها شيئًا من نورها"، وهم ينفتحون على كلِّ أرجاء الدنيا بمصدر الضياء الذي في أيديهم، ويحظون بفضل الله تعالى وعنايته بحُسنِ القبول أينما حلّوا، والواقـعُ أن الخدمـات الحاليّـة يمكنُ أن تتحقَّقَ باجتمـاعِ مجموعةٍ مـن الشـروطِ والظـروفِ، مثلُها في ذلـك مثلُ تلـك الخدمات التي تحقَّقت في الفترات السـابقة، فإذا تحدثنا مثلًا عن أوَّلِ انفتاح تحقَّقَ في التسعينات من القرن المنصرِمِ في آسيا الوسطى نجدُ أنه في تلك الفترة التي تفكَّك فيها اتحادُ الدول بعدَ أن كان يُشكِّلُ إحدى القوى العظمى في العالم آنذاك؛ كان لا بدَّ من وجود مدرِّسين ومُرَبِّين شبابًا يافعين يستطيعون الذهاب إلى تلك الأماكن تطوّعيًّا، وعلى الرغمِ من كلِّ الظـروف الصعبـة التي كانت تنتظرهم هناك كانت الرغبة والأمل تَحْدُوَانِهـم في الذهاب إلى تلـك الدول التي لا يعرفون مكانَها حتى علـى الخارطة، وكان لهؤلاء الشـباب من الرجالِ والنسـاءِ المتخرِّجِ معظمهـم حديثًـا أن يرغبـوا فـي البقاء ببلدهـم والخدمة فيهـا؛ فدَاءُ الصِّلَة (الحنين إلى الوطن) صعبٌ جدًّا؛ غير أنهم رغمَ حداثَةِ سـنّهم تجـاوزوا هذه المشـاعر وتغلّبـوا عليها، وذهبوا إلى بـلادٍ لا يعرفون عاداتها وتقاليدها، ولا حتى لغاتها دون أيِّ تردُّدٍ أو قلقٍ.

ويجـب ألا ننسـى أنَّـه كان لآبـاء وأمهـات هـؤلاء الذيـن نذروا أنفسـهم وهـم حديثو العهد بالتخرج من مدارسـهم بعـضُ الرغبات والأمنيـات التي يطمحون في أن تتحقـق، ولكن كيف أقنـع متطوّعو

التربيـة والتعليـم الذين نذروا حيواتهـم للإحياء آباءَهـم وأمهاتِهم!؟ -مـا أجمل ما أقنعوهـم به!!- وكيف رضي هـؤلاء الآباء والأمهات بذلـك، واسـتطاعوا مفارقـة أبنائهم!؟ إن هذه لَمسـألة أخـرى يطولُ الحديثُ حولَها، وفي نفس الوقت فإن ثمة قسمًا من هؤلاء الفدائيين الذين ذهبوا إلى دول شـتى اضطروا إلى مفارقة مخطوباتهم مدة من الزمـان والذهابِ إلى تلك البلاد، فـلا المفارِقُ ولا المُفَارَقُ رأى أن هـذا الشـوق والهجران يمنـع مـن الخدمات المنشـود أداؤها، وإنما أبانـوا عـن فدائيّة تبهرُ العيون وتبكيهـا قائلين: "هذا هو ما يلزم عمله والقيـام به الآن من أجل أُمَّتنا والإنسـانيّة جمعـاء"، وعندما نُفكِّرُ في كلِّ هـذه الأمـور مجتمعةً يبـدو اجتماعها وتحققهـا جميعًا في نفس الوقت وكأنه أمرٌ مستحيل الوقوع في إطار دائرة الأسباب.

فضـلًا عـن ذلك فإن الأسـباب اللازمة لهذه الفعاليـات الجميلة التـي تتحقَّـقُ لِصالِحِ الإنسـانيّة لا تقتصـرُ على هذا الأمر فحسـب؛ فَثَمَّـةَ حاجـةٌ إلى مُمَوِّلين فدائيّين يؤمنون بصحّـة الخدمات التعليميّة وضرورتهـا، ومن الصعبِ إلى حدٍّ كبيرٍ العثورُ على هؤلاء المموِّلين وإقناعُهم بالأمرِ وطلب تكفُّلهم بالاحتياجات المادّيّة لهذه الخدمات تطوُّعيًّـا، وهنـا أريـدُ أن أزيدَ الأمرَ توضيحًا عبـر الحديث عن حادثةٍ واقعيّةٍ حدَثَت معي شـخصيًّا؛ فقد كنتُ أزور سويًّا مـع رجلين ثَريَّين المصانـعَ في مدينة "إزمير" بحثًا عن دعمٍ للمعهد الإسـلامي العالي الذي سيُنْشَـأُ هناك، ونَطْلُبُ المسـاعدةَ من أصحاب تلك المصانـع، فكانا يصطحبانِني معهما كالواعظ كي يُبَيِّنُوا للناسِ مدى أهمّيّة المسألة ويقنعوهم بها بشـكلٍ أيسـر، وبعد أن تحدَّثْنا عن أهمية المسـألة في أحد مصانـع الطوب التي زرناها من أجل هذا المقصد والهدف أخرجَ

صاحب المصنع من جيبه خمسين ليرة على ما أذكرُ وأعطانا إيّاها، ولكم أن تُقدِّروا كم كان إنشاء المعهد الإسلامي العالي بهذه المبالغ البسيطة أمرًا صعبًا لدرجة المستحيل، وأمام هذا الموقف قرَّرْنا نحن والإخوة المعنيّين بالأَمْرِ في ختام جلسةٍ استشاريّة عقدناها فيما بيننا دعوةَ من يمكن دعوتهم مِنْ ذوي الإمكانيات والمقدرة المادّيّة إلى اجتماع وأن نستَنْهِضَ همَّتَهم قدرَ ما نستطيع، وعلى ما أتذكَّر لم يأتِ إلى الاجتماع من الأشخاص الذين دعوناهم إليه سوى عدد قليلٍ جدًّا ربما يشغل طاولةً واحدةً فحسب، ولقد قمتُ فيهم خطيبًا فتعهَّدَ الحاضرون ممن لبّوا الدعوة بأن يساهموا ماديًّا بمبالغ مختلفة مثل: مائة ألف ليرة، ومائة وخمسين ألف ليرة، وأربعين ألف ليرة، وثلاثين ألف ليرة، إلَّا أن أحد المدعوين قال وكأنه يفسد الأمر: "كل إنسان يعطي بقدر إيمانه بالمسألة، وإنني سأعطي ألفين وخمسمائة ليرة فحسب"، غير أنه شاء الله أن يأتي يوم شجَّعَ الناسُ بعضهم بعضًا على القيام بمثل هذه النوعية من الأعمال الخيريّة في شتى أنحاء الوطن، لدرجة أنهم كانوا إذا لم يُخبَروا بأيّ اجتماع تُرجى فيه مساعداتهم وهمَّتُهم يلومون قائلين: "لماذا لم أُدْعَ أنا إلى هذا الاجتماع؟!"، حتى إنني عندما انزويت بإحدى الغُرَفِ عقب كلمةٍ أَلْقَيتُها في أحدِ المجالِسِ التي عُقِدَت من أجل هذا المقصد عينه دخلَ عليَّ الغرفةَ ضابطُ صَفٍّ متقاعدٌ يحملُ مفاتيح في يده، وقال بتأثرٍ وحرقة: "لقد ساهم الجميع قبل قليل، أما أنا فليس لديَّ ما أقدمه، ولذلك فإنني أحضرت إليكم مفاتيح بيتي"، وبالطبع لم يكن ممكنًا أن أقبلَ عرضًا كهذا، فشكرتُه وردَدْتُ عرضه هذا بأسلوبٍ مناسِب.

وعندما وصلنا إلى أيام أول انفتاح لنا على الخارج في التسعينات من القرن المنصرم كانت هذه الروح قد تكونت في بني جلدتنا، ولذلك لم تكن القضية قضية المعلم والمربي فحسب، وما كان لهذه الفعاليات التربوية التعليميّة أن تتحقَّقَ على المستوى العالمي إلا باجتماع وتوفر العديد من العوامِلِ مثل رضا الوالدين، وملائمة الظروف والأوضاع في الأماكن والبلاد المقصودة، والدعم المادّي من أهل الأناضول الأسخياء لمن سيذهبون إلى هناك، واجتماعُ كلّ هذه العناصر في آنٍ واحدٍ لا يُساوي في ميزان الحسابات إلا واحدًا في المليون، إذن يستحيل أن يعزوَ إنسانٌ إلى نفسه وذكائه وفطنته وكياستِه وعقلِه الألمعيّ ومنطقه ومحاكمتِه العقليّة مسألةً كهذه تتحقَّق باحتمالٍ يُمَثِّلُ واحدًا في المليون، فإنْ همَّ أن يفعلَ ذلك فقد ارتكبَ ظلمًا كبيرًا وأساءَ الأدب كثيرًا.

صاحبُ الفضلِ هو اللَّه ولا أحدَ سواه

الواقع أنَّ العقيدة والأخلاق الإسلاميّتين قد ركّزتا بحساسيّة شديدة على الإيمان بأنَّ كلَّ شيءٍ في كلِّ الأعمال الجميلة والنجاحات إنما هو من عند الله، وكمثالٍ على ذلك فلقد أقال الفاروقُ عمر ﷺ قائدَ الجيوشِ خالدَ بن الوليدِ بسبب فكرة كهذه؛ رغمَ أنّه كان يتولّى قيادةَ الجيش في معركةٍ غايةٍ في الحساسيّة كموقعة اليرموك؛ إذ إن قوات الأعداء كانت تفوقُ قوَّةَ المسلمين عدَدًا وعدَّةً بحوالي سبعة أو ثمانية أضعاف، إلا أن هذه المعركة كُلِّلت بإذن الله وتوفيقِه بالنصرِ المُؤَزَّرِ للمسلمين، فأنْهَتْ سيادةَ البيزنطيّين على سوريّة وأضفت عليها السيادة الإسلاميّة، ولقد أبرزَ

القائدُ العسكريُّ أبو سليمان خالد بن الوليد دهاءَه العسكريّ آنذاك، فوضعَ إستراتيجيّاتٍ حربيّة في غاية الإحكامِ والروعة، وأبدى من الفتوّة والفروسيّة والشجاعةِ ما حازَ تقديرَ وإعجابَ الجميعِ، وبينما كانت مثل هذه الحرب الضروس دائرة أقالَ سيدنا عمرُ سيدَنا خالدًا ﷺ من قيادة الجيش، وحضر خالد ﷺ أمام الخليفة وكلُّهُ تواضعٌ وامتثالٌ لأمرِ أميرِ المؤمنين، وهو الذي نزل على هامة الساسانيين والبيزنطيين كالمطرقة فقضى عليهما، وهو من قال عنه سيدنا أبو بكر ﷺ: "عجزت النساء أن ينسلن مِثْلَ خَالِدٍ!"(٧٠)، وكما قال أحد الغربيين: "إننا نرى القادة من أمثال "هانيبعل" يتسوَّلون على باب خالدٍ"، وهكذا وبالرغم من كونه قامة سامية تحظى بتقدير الجميع فقد صار جنديًّا عاديًّا بعد أن عُزِلَ من منصبِ قيادة الجيش، ولما وصل خالد إلى جوار عمر ﷺ -فداهما روحي ونفسي- قال له سيدنا عمر: "يا خالد، والله إنك عليَّ لَكريم، وإنك إليَّ لَحبيب"، ثمَّ تمثَّلَ قول الشاعر:

صَنَعْتَ فَلَمْ يَصْنَعْ كَصُنْعِكَ صَانِعٌ

وَمَا يَصْنَعُ الأَقْوَامُ فَاللهِ يَصْنَعُ

ثمَّ كَتَبَ عُمَرُ إِلَى الأَمْصَارِ: "إِنِّي لَمْ أَعْزِلْ خَالِدًا عَنْ سَخْطَةٍ وَلا خِيَانَةٍ، وَلَكِنَّ النَّاسَ فُتِنُوا به، فَخِفْتُ أَنْ يوكلوا إِلَيْهِ وَيُبْتلُوا به، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الصَّانِعُ، وَأَلا يَكُونُوا بِعَرَضِ فِتْنَةٍ"(٧١)، وأمام هذا الموقف تَمثّل سيدنا خالدُ بن الوليد ﷺ عظمةً أخرى فوق ما يتَّصِفُ به من عظمةٍ تُحَيّرُ العقول والألباب؛ فانصاع لأمر

(٧٠) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، ٣٥٩/٣.

(٧١) المصدر السابق، ٦٨/٤.

أبـي عبيـدة بن الجـراح ﷺ الذي كان حتى ذاك اليـوم جنديًّا خاضعًا لإمرته هو، وناضل حتى آخر يوم في حياته كجندي وسـيفٍ مسلولٍ برّاقٍ من سيوف الجيش الإسلامي.

وخلاصـةُ القول: إنّـه لا احتماليّة ولا إمكانيّـة لتحقيقِ أيّ نجاح على أرضِ الواقـع ما لم تحالِفْه قدرة الله تعالى وعنايته. أجل، إن كلَّ جمـال يتحقـق لا يكون إلا بإذن الله وعنايتـه ورعايته تعالى، ولأجل ذلك فإنه لا بدَّ من الإيمان بأن الأنشطة التي تحقَّقَتْ حتى اليوم إنما هـي مظهـرٌ من مظاهرِ رعايـةِ الحقِّ تعالى، وتجلّيـات أخرى متعدّدة الأبعـاد من تجليات عنايته ولطفه سـبحانه، وفي الوقت نفسـه يجب أيضًا أن تثير مثل هذه المظاهر مشاعرنا فتدفعنا إلى شكر الله وحمده، فتتزايد بالشـكر كلُّ النِّعَمِ التي تحقَّقَتْ حتى اليوم وتسـتمرّ، وإلا فإن نَسَـبْنَا -معـاذ الله- تحقيقَ النجاحاتِ إلى أنفُسِـنا يَكِلُنـا الله إلى قوَّتِنا وإرادَتِنا الضعيفة، لأنَّنا قد خنَّا هذه الأمانة المباركة التي وصلت إلينا بواسـطة أيادٍ مخلصةٍ حقًّا، ذلك أنَّ الحقائق القرآنية يمكن أن تُخيِّمَ علـى الكـون حقًّا عبر ارتباطِنـا الدائم بحقيقة التوحيـد، وإيمانِنا بأنه يسـتحيل ولو حتى لورقةِ شـجر أن تتحـرَّكَ دون أن تلفّها عنايتُه ﷻ، وعبرَ ديمومةِ التمسُّكِ والارتباطِ بهذا الاعتقاد.